تلازم الاسلام والعربية يشهد به جهابذة العجم

للدكتور مصطفى جواد

عضو المجمع العلمي العراقي

اذاعت بعض وزارات الاعلام في كثير من العواصم العربية نص الاستفتاء حول تلازم الاسلام واللغة العربية كما نشرته صحف ومجلات مع ردود عليه لم نتوصل باصلها نخص منها هذه الكلمة القيمة للدكتور مصطفى جواد عضو المجمع العلمي العراقي في مجلة الاذاعة والتلفزيون التي تصدرها وزارة الثقافة والارشاد البغدادية ونحن ننشرها شاكرين :

علاقة الاسلام باللغة العربية كعلاقة الشجرة بأرضها ، فلا تحيا الشجرة من غير أن تستقر في ارض تنغرس على نواتها أو تحتضن غرسها حتى يستمر نماؤها وتطلع ثمارها او تزهر ازهارها ، فلا شجرة بغير أرض ولا اسلام بغير العربية ، وكيف لا يصح هذا القول ، وأول ركن من أركان الاسلام هو الشهادتان شهادة الالوهية لله تعالى وشهادة النبوة لمحمد رسول الله ـ عليه السلام ـ ولا يكونان الا باللغة العربية ؟ وكيف لا يصح والقرآن الكريم عماد الاسلام انزل باللغة العربية ، ودعا كل مسلم الى فهم الفروض الاسلامية والواجبات الدينية وهي في القرآن ، واكثر الامور الاسلامية المفصلة ، والآداب المحمدية المحصلة مذكورة في السنة النبوية وهي باللغة العربية ؟ فانهم على تجويزهم رواية الاحاديث النبوية بالمعنى أوجبوا ان يكون بدلها من اللغة العربية ايضا .

وهذه الصلاة في اوقاتها الخمسة وهي من اركان الاسلام والحج والعمرة لا تكون الا باللغة العربية فضلا عن القنوت والدعاء ، والتضرع والرجاء ، هذا في الامور الاخروية ، اما الشؤون الدنيوية كخطبة الزواج والاقضية والعقود ومحاضر الاحكام فلم تكن الا باللغة العربية ولا تزال كذلك ، فلا عجب أن سايرت اللغة العربية الاسلام اينما سار في سائر النواحي والبلاد والاقطار ، وكانت الفتوح الاسلامية فتوحا للغة العربية في بلاد الفرس وبلاد الترك وبلاد الهند وشمالي افريقية وبلاد الاندلس ، وتوغلت العربية في بلاد الصين مع صلات التجار القاطعين للبحار ، حتى لقد ذكر ابن بطوطة الرحالة انه سمع مغنيا في الصين يتغنى باللغة العربية في الثلث الاول من القرن الثامن للهجرة .

وبعد هذا التمهيد يحق لنا أن نقول **ان علاقة الاسلام باللغة العربية وثيقة جدا** ، فالاسلام كان أعظم الاسباب في انتشارها في المشارق والمغارب ، وقضائها على عدة لغات قديمة ، واقبال غير العرب على دراستها والتاليف في كل الفنون بها حتى نحوها وصرفها ، ولذلك كان الشعوبيون وهم ملاحدة يرون في اللغة العربية غولا تغتال لغاتهم ، فكانوا يقاومونها ويبغضون المعنيين بها كما يبغضون اهلها العرب ، ويحتقرون الذي يتكلم بها ، قال الامام ابو القاسم محمود بن عمر التركي الزمخشري في مقدمة كتابه المفصل : « الله احمد على أن جعلني من علماء العربية ، وجبلني على الغضب للعرب والعصبية ، وآبى لي أن انفرد عن صميم انصارهم وامتاز وانضوي الى لفيف

الشعوبية وانحاز وعصمني من مذهبهم الذي لم يجد عليهم الا الرشق بألسنة اللاعنين ، والمشق بأسنة الطاعنين ... ولعل الذين يغضون من العربية ويضعون من مقدارها ، ويريدون ان يخفضوا ما رفع الله من منارها ، حيث لم يجعل خيرة رسله وخير كتبه فى عجم خلقه ولكن فى عربه ، لايبعدون عن الشعوبية منابذة للحق الابلج ، وزيغا عن سواء المنهج، والذي يقضى منه العجب حال هؤلاء فى قلة انصافهم، وفرط جورهم واعتسافهم ، وذلك انهم لا يجدون علما من العلوم الاسلامية : فقهها وكلامها وعلمي تفسيرها واخبارها الا وافتقاره الى العربية بين لايدفع ؛ ومكشوف لايتقنع ويرون الكلام فى معظم ابواب الفقه ومسائلها مبنيا على علم الاعراب ، والتفاسير مشحونة بالروايات عن سيبويه والاخفش والكسائي والفراء وغيرهم من النحويين البصريين والكوفيين ... فهم متلبسون بالعربية اية سلكوا غير منفكين منها أينما وجهوا ، كل عليها حيثما سيروا ، ثم انهم فى تضاعيف ذلك يجحدون فضلها ، ويدفعون خصلها ويذهبون عن توقيرها وتعظيمها ، وينهون عن تعلمها وتعليمها ، ويمزقون أديمها ، ويمضغون لحمها ، فهم فى ذلك على المثل السائر (الشعير يؤكل ويذم) ويدعون الاستغناء عنها ، وانهم ليسوا فى شق منها ، فان صح ذلك فما بالهم لايطلقون اللغة راسا والاعراب ، ولا يقطعون بينها وبينهم الاسباب ، فيطمسوا فى تفسير القرءان آثارها ، وينفضوا من اصول الفقه غبارها » .

وقال الزمخشري يمدح لسان العرب : اللغة العربية :

وقل هل فشا فى الارض غير لسانهم
لسان يشع الضوء واليوم شامس ؟

به عج في امصارهم كل منبر
وطنت به في الخافقين المدارس

على ظهرها لم يخلق الله أمة
تناسبهم في خصلة أو تلابس

يقايس بين الناس حتى اذا انتهى
الى العرب المقياس طاح المقايس

وواحدة هاتيك تكفيك حجة
بساطعها تنشق عنك الحنادس

أجل رسول منهم وبلسنهم
أجل كتاب فاعتبر يا منافس

وقل للشعوبيين ان حديثكم
اضاليل من شيطانكم ووساوس

فمنذ عصر الزمخشري والعصور التي قبله والعصور التي بعده حتى هذا العصر كانت محاربة الاسلام فى كثير منها محاربة للعربية لانها دائما وابدا اليه تستند وعليه تعتمد ؛ كما أن محبة العربية تنشأ عن محبة الاسلام والمسلمين ، قال الثعالبي فى مقدمة فقه اللغة : « انه عز وجل لما شرف العربية وعظمها، ورفع خطرها وكرمها ، قيض لها خزنة وحفظة من خواص الناس واعيان الفضل وانجم الارض ، فنسوا فى خدمتها الشهوات ، وجابوا الفلوات ، ونادموا لاقتنائها الدفاتر ، وسامروا القماطر والمحابر ، وكدوا فى حصر لغاتها طباعهم ، وأسهروا فى تقييد شواردها اجفانهم ، واجالوا فى نظم قلائدها افكارهم ، وانفقوا على تخليد كتبها اعمارهم ، فعظمت الفائدة ، وعمت المصلحة وتوفرت العائدة ، وكلما بدت معارفها تتنكر، او كادت معالمها تتستر ، او عرض لها ما يشبه الفترة، رد الله تعالى الكرة ، فاهب ريحها ، ونفق سوقها » .

فالعربية لغة مقدسة شرفها الله وعظمها بأن جعل الاسلام مستندا اليها ، فى قرآنه وايمانه وسنته وبيانه ، واحكامه ونظامه ، فمحبتها واجبة ، على كل مسلم ومسلمة ، ورعايتها لازمة راتبة ، **وهي والاسلام متلازمان** وفي الناس من أهل الملل الاخرى من يكره العربية لكراهيته للاسلام ، ومن الناس من يبغض الاسلام لبغضه العربية وهم اكثر من اولئك ، فمنهم من يدعو الى اللهجات العامية ومنهم من يدعو الى الاستبدال بحروفها ، وبعض الدول دعت الى تركها بتة وترك خطها بمرة لكراهة زعيمها للاسلام . فالتلازم ظاهر فى كل الاحوال وفي كل مجال ، **وقد انزوت اللغة العربية منذ عدة عصور من عدة بلاد بسبب التعصب للقومية** ، والدعوة الى عصور الجاهلية ، والانتقام من العربية بما فتحت من بلاد ، ونشرت من آداب ، ووطدت من الاسلام ، وبثت من علوم ، واوهنت أو اهلكت من لغات .